عبد الوهاب مطاوع

الطبعة الثانية

طائر الأحزان

الدار المصرية اللبنانية





الحياة حافلة بصور المعاناة الإنسانية .. لكن مسئوليتنا نحن البشر هى أن نحاول قدر الجهد والطاقة، أن نفيق من دوائر الأنانية والفردية والقسوة والظلم الإنسانى فيها، وأن نوسّع ونعمّق دوائر المشاركة والتكافل والعطاء للآخرين .. لنكون كما يقول أنطوان تشيكوف : " لو أن كل إنسان فعل مافى وسعه لتجميل رقعة الأرض ، التى يقف عليها لأصبح كوكبنا فتنة للأنظار"..

هكذا كانت مسئولية عبد الوهاب مطاوع وإحساسه بقرائه..

ولا تعليق !!

* عبد الوهاب مطاوع 1940 ـ 2004.
* شغل منصب مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.
* حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام 1992 كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.
* كان يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.
* صدر له 52 كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات.
* صدرت له ثلاث مجموعات قصصية هى: (أماكن فى القلب) (ولاتنسنى) ، (والحب فوق الـ...)







عبد الوهاب مطاوع

طَائِـــرُ الأَحـــزَانِ

الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

"أنا لا أعرف شيئًا عن أسرار الله.. لكنى أعرف بعض عذاب البشر" عبارة قديمة قالها الحكيم "بوذا" منذ آلاف السنين وأستعيدها الآن مرةً كلَّ أسبوعٍ على الأقل!

فلقد اعتدت طوال السنوات الثلاث عشرة الماضية، أن أنقطع عن الحياة وأعتكف فى بيتى يوم الأربعاء من كل أسبوع لأقرأ رسائل المهمومين والمعذبين وأختار منها ما أنشره وأعلق عليه فى بريد الجمعة. وأفعل ذلك فى جلسة متصلة مرهقة تبدأ من ظهر يوم الأربعاء.. ولا تنتهى قبل ظهر يوم الخميس حين يجىء مندوب من الأهرام ليتسلم منى مقالى.

وقد لاحظت مع مرور السنوات أننى فى يوم الأربعاء من كل أسبوع أنهض من نومى شبه مكتئب، ربما لإحساسى بأنى مُقْدم على "واجب حزين" لا يعدنى بالسرور، وأننى أظل طوال ذلك اليوم شبه

صامت.. وشبه غائب الذهن.. لا أتحدث إلا قليلاً.. ولا أستجيب لمحاولات أحد لاستدراجي للحديث أو المشاركة فى أى نشاط عائلى، كما أننى أصبح مع استغراقى فى قراءة رسائل المهمومين ومعايشة آلامها، ضيِّق الصدر سريع الاستجابة لأى انفعال عابر، حتى عرف عنى أهلى ذلك بطول المعاشرة.. وتجنبوا الجدال معى فى شىء فى ذلك اليوم..

ولست أرى فى ذلك شيئًا غريبًا، ففى هذا اليوم من كل أسبوع أعرف شيئًا جديدًا عن "عذاب البشر".. وأفيق بأشياء جديدة فى طبائع بعض البشر..، ولا أفقد رغم كل ذلك إيمانى الراسخ بخيريّة الحياة ومسئوليتنا نحن البشر عن تخفيف بعض عنائها عن المعذبين وتضميد جراح نفوسهم.

فالحياة حافلة بصور المعاناة الإنسانية، لكن مسئوليتنا نحن البشر هى أن نحاول قدر الجهد والطاقة، أن نفيق من دوائر الأنانية والفردية والقسوة والظلم الإنسانى فيها، وأن نوسِّع ونعمِّق دوائر المشاركة.. والتكافل.. والعطاء للآخرين فيها، وكلما جلست إلى مكتبى لأكتب بريد الجمعة أجد فى سمعى صدى كلمات الحكيم بوذا، حاولت على الناحية الأخرى أن أستعيد كلمة أمير القصة القصيرة أنطون تشيكوف والتى يقول فيها: "لو أن كل إنسان فعل ما فى وسعه لتجميل رقعة الأرض التى يقف عليها لأصبح كوكبنا فتنة للأنظار".

وتجميل رقعة الأرض التى يقف عليها الإنسان لا يقتصر فقط على تجميل المكان.. وإنما يتعداه إلى تجميل النفوس.. ومحاولة تخفيف أسباب الشقاء الإنسانى.

لقد عرفت الكثير عن "عذاب بعض البشر" خلال السنوات الثلاث عشرة الماضية.. لكنى عرفت الكثير أيضًا عن جمال النفوس.. وقدرتها على تخفيف الآلام.. وتجميل الحياة.

وفى هذا الكتاب صور واقعية من هذا وذاك أحلم بأن يستفيد بها من يقرؤها بأن يزداد كراهية لصور الغدر والشر.. والخديعة.. ويزداد إيمانًا واحترامًا لقيم الخير والوفاء والعطاء والعدل الإنسانى.. وشكرًا.

عبد الوهاب مطاوع

سيدى والله إنى لا أدرى ما الذى دفعنى للكتابة إليك لأروى لك قصتى مع الحياة، كما لا أعرف إذا ما كان فيها ما يستفيد به الآخرون أم لا؟. لكنى رغم ذلك أشعر برغبة ملحة فى أن أحكيها لك. نشأت فى أسرة طيبة بإحدى مدن الوجه البحرى ولأب يُعدّ من الأعيان لأنه يملك 50 فدانًا، لكنه فى الواقع من متوسطى الحال لأن الأرض كلها كانت مؤجرة ولا يتقاضى عنها إلا إيجارًا زهيدًا. وحين بلغت المرحلة الثانوية بدأ تعثرى فى الدراسة، ورسبت سنتين متتاليتين فى الثانوية العامة، فقررت أسرتى أن ترسلنى للإقامة مع خالٍ أعزب يُقيم بالقاهرة لألتحق بإحدى مدارسها وأخضع لإشرافه خاصة أن شخصيته كانت جبارة وصارمة. وشاءت الظروف أن تتكرر نفس الظروف مع ابنة إحدى خالاتى التى حصلت على الإعدادية بمجموع ضعيف لا يؤهلها للالتحاق بالثانوى العام، ولم يكن فى بلدتنا مدرسة ثانوية خاصة فرأت أسرتها أن ترسلها أيضًا إلى خالى الصارم بالقاهرة لتلتحق بمدرسة خاصة تحت رعايته.

وهكذا جمعتنا الدراسة فى شقة خالى الأعزب تخدمنا سيدة مسنَّة ويتابع خالنا بشدّته المعروفة انتظامنا فى الدراسة وتحصيلنا الدراسى، وفى ظروف الغربة عن أهلنا.. والشكوى

من شدة خالى وصرامته وجدنا نفسينْا أنا وبنت خالى نتبادل الحب فى هذه السن الصغيرة.. ولا أعرف هل كان حبًا حقيقيًا أم حب مراهقة، لكننا رغم ذلك تعاهدنا على الزواج وتعاملنا مع هذا الأمر الخيالى بجدّية غريبة، ومضى العام الدراسى ونجحتُ فى الثانوية العامة بما يشبه المعجزة وبمجموع ضعيف، ونجحت ابنة خالتى أيضًا وتيسَّر نقلها إلى المدرسة الثانوية ببلدتنا فانتقلت إليها وعادت لتقيم مع أسرتها. أما أنا فقد التحقت بالمعهد العالى للتربية الرياضية واجتزتُ الاختبارات الرياضية بالتوصية والواسطة لأنى لم أمارس فى حياتى أية لعبة رياضية، وانتظمت فى الدراسة ومن حين لآخر أزور أسرتى فى بلدتنا.. وأجدّد العهد مع ابنة خالتى على الزواج إلى أن وصلت إلى السنة الثالثة بالمعهد ووصلت فتاتى إلى الثانوية العامة. وكثرُ خطَّاب فتاتى وتعدّدوا فهى جمال وأسرة ومال، وكلما تقدم لها خاطب رفضته انتظارًا لى، إلى أن تقدم لها خاطب ممتاز من كل الجوانب فأرغمتها الأسرة على قبوله، وحاولت هى الاعتراض بكل وسيلة فلم تثمر محاولاتها سوى تأجيل القران إلى ما بعد أدائها لامتحان الثانوية العامة. وواجهنا الكارثة التى تهددنا بالفراق حتى نهاية العمر.. وتشاورنا فيما نفعل فيها وحدثتنا عقولنا ونحن فى هذه السن الصغيرة إلى قرار خطير هو أن نضع الأسرتين أمام الأمر الواقع، وأقدمنا على ما نويناه رغم الأهوال التى تنتظرنا وصارح كل منا أهله بأنه لن يتزوج

سوى الآخر مهما حدث ولو دعانا ذلك إلى ارتكاب أى حماقة يتصورونها.. وانهال علينا اللوم والسباب والإهانة وبعد خفوت العاصفة اجتمعت الأسرتان وقررتا تزويجنا تجنبًا لاتساع المشكلة مع مقاطعتنا فى نفس الوقت.

وكان الحل الذى توصلت له الأسرتان هو أن نرحل عن البلدة ونقيم فى شقة صغيرة بالقاهرة تنازل لنا عنها أحد أقاربنا، وأن يعطينى أبى مبلغ عشرة جنيهات فقط كل شهر ويعطى والد فتاتى ابنته عشرة جنيهات مماثلة لنعيش بهذا الدخل البسيط فى القاهرة ونتحمل مسئولية حياتنا و"إجرامنا" فى حق الأسرتين!

وتم الزواج وكان الفرح كالمأتم الحزين وسعدنا بذلك رغم الإهانات والاحتقار فالكل فيه مقطّب ومتجهِّم فى وجهينا.. وأنا وفتاتى مترددان بين الابتهاج باجتماع الشمل وبين الحزن لما نحسه من رفض الأهل وازدرائهم لنا.

وانتقلنا إلى الشقة التى تم تجهيزها فى أضيق الحدود مراعاة لظروف أبى المالية وواجهنا واقعنا الجديد كعروسين مغضوب عليهما من الأهل ومحرَّم عليهما العودة إلى البلدة إلى أجل غير مسمى، وبدخل شهرى يأتينا بالبريد أو مع أحد الأقارب قدره عشرون جنيهًا لا غير. ومع ذلك فلقد سعدنا باجتماع شملنا.. ولم تمض أسابيع حتى دب

جنين الحب واندفاع الشباب فى أحشاء زوجتى وفكرت فى مستقبل هذا الجنين ونحن لا نكاد نستطيع أن نلبِّى حاجتنا من الطعام. وقررت مع زوجتى أن نبيع ذهبها وأشترى به سيارة أجرة مستعملة وأتعلم القيادة لأعمل سائقًا عليها بعد الدراسة فى المعهد، واشتريناها وبدأت أعمل عليها بعد الظهر وفى أيام الأجازات، وقررت مع زوجتى أن نتوقف عن قبول المساعدة الشهرية من أبى وصهرى..لكى نستعيد بعض احترامنا فى أعين الأهل الذين احتقرونا. وتحسنت أحوالنا بعض الشىء.. ووضعت زوجتى حملها فإذا به توءم من ولدين بدلاً من ولد واحد.. وترددت لحظات بين الفرحة بهما وبين استثقال مؤنتهما لكنى طردت الهواجس على الفور وسعدت بهما سعادة طاغية.. وبعد شهرين من مجيئهما للحياة حملت زوجتى مرة أخرى واستقبلت عامى الأخير بالمعهد وقبل أن تعلن نتيجة البكالوريوس وضعت زوجتى حملها الثانى فإذا به توءم ومن ولدين أيضًا.. ولله فى خلقه شئون وتخرجت وعملت مدرسًا بمدرسة بإحدى المحافظات القريبة من القاهرة وعمرى 24 سنة وزوج وأب لـ 4 أطفال ذكور! وحين كان زملائى بها يسألوننى عن حالتى الاجتماعية وأجيبهم بالحقيقة كانوا يندهشون ويتعجبون كيف أواجه مسئولية أسرتى الكبيرة بمرتب لا يزيد وقتها على 23 جنيها، لكنى كنت أجيبهم بأننى أكافح لإعالة أسرتى بعد العمل بسيارة أجرة.. وتهون كل مصاعب

حياتى حين أعود إلى بيتى الدافىء بالحب وأجد فيه "أم العيال" بنت العشرين!

شىء واحد كان ينغِّص علينا حياتنا هو أن الأهل ظلوا على موقفهم منا رغم استغنائنا عن معونتهم. وحملت زوجتى للمرة الثالثة ولم أكن راغبًا هذه المرة فى حملها ولا هى أيضًا لكنها إرادة الله ونحن صغيران لا ندرى الكثير عن أمور الحياة ولم تكن وسائل تنظيم الأسرة شائعة كما هى الحال الآن، ولو كانت شائعة لما عرفنا عنها الكثير فأنا أدور فى طاحونة من السادسة صباحًا حتى منتصف الليل وكذلك زوجتى، ولا أعرف حتى الآن كيف كنت أقوم بتدبير نفقات الولادة ولبن الأطفال.. والمهم أن زوجتى قد وضعت حملها الثالث ولو ساورك الشك فيما سأرويه لك عذرتك لكن هذه هى الحقيقة التى لا أملك لها تبديلا.. فقد وضعت زوجتى للمرة الثالثة توءمًا أيضًا ومن ولدين، وأصبحت أنا وزوجتى وأطفالنا الستة حديث الأقارب وموضع إشفاق بعضهم، ورغم كل ذلك فقد استمرت الأسرتان فى موقفهما منّا وهو موقف يمثل شبه مقاطعة وخاصة معى أنا بالذات. وضاعف من عناء حياتنا أن تأجيل تجنيدى كان قد انتهى، فتقدمت لأداء الخدمة العسكرية بعد حرب أكتوبر وانقطع جزء كبير من دخلى من السيارة لكنى تحملت مع زوجتى كل شىء وانتهت فترة الخدمة بعد عناء شديد ووجدت العبء قد أصبح ثقيلاً على كاهلى.. وأنا أتكبد نفقات السفر بالأتوبيس كل يوم إلى المدرسة التى أعمل بها

وأعود متأخرًا منها فأستريح ساعة واحدة فى البيت للغداء ثم أخرج بسيارتى الأجرة لأكسب رزق الأسرة الأساسى حتى منتصف الليل وأرجع لأنام مرهقًا وأنهض من نومى فى السادسة صباحًا، وزوجتى التى نشأت فى العزّ ولم تعرف الفقر أصبحت تفصل من فساتينها القديمة ملابس للأطفال الرضَّع. وبدأت ملابسها التى جاءت بها من أسرتها "تدوب" من كثرة الاستعمال ولا تستطيع شراء غيرها. وقد اخشوشنت يداها من غسيل ملابس الأطفال الرضع كل يوم عدة مرات وخدمتهم الشاقة طول النهار.. والطهو والكنس والنظافة الخ.. وكلما أشفقت عليها مما تتحمله من عناء هوّنت علىَّ مصاعب حياتنا وبشَّرتنى بالبشرى التى مازلت أعجب حتى الآن كيف كانت قادرة على إمكان تخيُّلها وسط ظروفنا اليائسة تلك، فلقد كانت تقول لى إننى سوف أصبح "أحسن واحد" فى الأسرة، وسوف تثبت الأيام لكل من ازدرونا واحتقرونا أنها اختارت الاختيار الصحيح! فأدعو لها بالصحة وطول العمر جزاء محاولتها رفع روحى المعنوية. والمهم أننى وجدت نفسى عاجزًا عن الاستمرار فى العمل كمدرس فى تلك المحافظة لما أتكبده من نفقات فى السفر إليها فقدمت لمسابقة لتعيين مشرفين رياضيين بإحدى جامعات القاهرة.. ولم أكن أفضل المتقدمين ولا أحسنهم، لكن الله سبحانه وتعالى أراد لى النجاح ربما لأننى وأنا أتقدم بالطلب استحضرت فى خيالى عيون زوجتى وأطفالى الستة حين أرجع إليهم بالنتيجة وتسألنى زوجتى بلهفة عما فعلت، فلم يشأ

الله أن يخذلها وعينت مشرفًا رياضيًا بالجامعة واتسعت أمامى ساعات العمل على سيارة الأجرة.. وتخففت من بعض متاعب حياتى. لكن "الأولاد" كبروا سريعًا ياسيدى وزادت نفقاتهم ومطالب الحياة والمدارس.. ولم أجد مخرجًا لى من ظروفى سوى التعلق بالأمل فى العمل فى الخارج، وكلما جاء موسم الإعارات أو أعلن عن مسابقة للعمل فى الخارج أتقدم بطلبى فلا يكون لى نصيب فيها، وأعود لمواصلة حياتى وزوجتى تطالبنى بالصبر إلى أن تقدمت عقب إعلان للعمل برعاية الشباب بإحدى دول الخليج وتحقق الأمل الصعب وتم اختيارى وسافرت مع زوجتى وأطفالى الستة إلى هناك بعد أن بعت سيارتى الأجرة، واستقرت حياتنا هناك وتفانيت فى عملى الجديد ثم حدث بعد فترة أن كنت فى أحد مطارات هذه الدولة لأركب الطيران الداخلى عائدًا إلى مقر إقامتى فتصادف جلوسى بجوار شخص مصرى قادم فى زيارة، فطلب منى أن أعطيه بعض عملة الدولة المحلية لأنه فقد ما كان معه منها مقابل أن يعطينى قيمتها مما بقى معه من الجنيهات المصرية، فقدمت له ما أراد ورفضت أن آخذ منه مقابلها المصرى مؤجلاً ذلك إلى حين أن أرجع لمصر فى أجازتى السنوية، فنظر إلىَّ شاكرًا ثم أعطانى بطاقة باسمه وعنوانه وخلال انتظارنا للطائرة روى لى أنه توجد قطعة أرض مبانٍ بالهرم تباع بألف وخمسمائة جنيه للقيراط وأوصانى بالشراء منها عند عودتى لمصر لأنها فرصة طيبة لى، وجاءت الطائرة وذهب كل منا إلى حال سبيله، ثم جاءت الأجازة

الصيفية بعد شهور وعدت لمصر.. وتوجهت إلى عنوان هذا الشخص فاستقبلنى بترحاب كبير وسدَّد لى ما أخذه منى، ثم اصطحبنى إلى صاحب الأرض التى حكى لى عنها وقمت بشراء قطعة ممتازة بمبلغ ستة آلاف جنيه، وأصبحت مالكًا لقطعة أرض للمرة الأولى فى حياتى! وبعد أيام من إقامتنا فى شقتنا القديمة بالقاهرة التى شهدت أيام العناء الطويلة استخرت الله وقررت أن أسافر إلى بلدتى التى لم أدخلها منذ أكثر من عشر سنوات لأصالح أبى وأمى وأسترضيهما خاصة بعد أن أصبحت أنا وزوجتى أسرة من ثمانية أفراد وذهبت واسترضيت أبى وأمى وسألتهما العفو عن اندفاع الشباب والرضا عنى، وفعلت نفس الشىء مع أسرة زوجتى طالبًا الصفح عن كل ما كان.

وعُدنا من بلدتى إلى القاهرة راضين وسعداء.. وانتهت الأجازة سريعا وعدنا لمقر عملى.. فلم تمض شهور حتى جاءنى نبأ وفاة أبى فحزنت عليه وحمدت الله كثيرا أن مات صافحًا عنى، وفى نفس العام أيضًا مات والد زوجتى وكان تاجرًا كبيرًا فتعجبت من حكمة القدر، وفى صيف العام التالى عُدْنا إلى مصر فى الأجازة فوجدنا ثروة كبيرة تنتظرنا أنا وزوجتى من ميراثى وميراثها وتذكرت أيام الحرمان والشقاء وليالى الضيق الطويلة التى لم يخففها عنا سوى حبنا وتعجبت من تغير الأحوال ولم أملك إلا أن أشكر ربى على نعمته.

ولقد مضت سنوات العمر بعد ذلك يا سيدى وبلغتُ الآن الثامنة والأربعين من عمرى ومازلت أعمل فى الخارج.. وقد حدثت تطورات مهمة فى حياتى فحصل التوءم البكر على الثانوية العامة معًا والتحقا بكلية الطب فعادت معهما زوجتى لترعاهما.. وبقيت أنا مع الأولاد الأربعة الآخرين لرعايتهم، وفى العام التالى نجح التوءم الأوسط والتحقا أيضًا بكلية الطب وانضما إلى فرع الأسرة فى القاهرة وبقيت أنا مع التوءم الأصغر حتى يحصل على الثانوية العامة.. وقد حصلا عليها أيضًا والحمد لله بعد عامين وعادا لمصر والتحقا بكلية الهندسة وأصبحت أعود إلى مصر مرتين فى السنة لأرى أولادى وزوجتى وأعيش معهم أجمل أيام عمرى، وقد أصبح لنا والحمد لله بيت جميل تم بناؤه فى قطعة الأرض التى اشتريتها فى الهرم والتى تضاعف سعرها بعد ذلك أضعافًا مضاعفة وكان شراؤها توفيقا من الله.

وفى العام الماضى زوَّجت التوءم البكر لمن أحبا رغم صغر سنهما ولم أفكر فى الاعتراض أو التأجيل مادمت قادرًا على تكاليف زواجهما وقد وفرت لهما كل شىء، وفى الصيف القادم إن شاء الله سوف أزوِّج التوءم الأوسط، وفى العام الذى يليه سيأتى دور التوءم الأصغر بإذن الله.. فأولادى يعتبروننى المثل الأعلى لهم.. وتحققت نبوءة زوجتى أو بشارتها فأصبح وضعى المالى بين الأسرتين.. فى القمة والحمد لله لكن

الأهم منه أننى وزوجتى على وفاق وفى قمة السعادة والرضا والحمد لله ولم أنس حقوق والدتى علىَّ وكذلك لم تقصر زوجتى فى حقوق والدتها عليها رغم ما قدمته لى من إساءة بالقول والفعل.. كما لم أنس أيضًا حقوق الضعفاء فيما أنعم الله علىَّ به ولا أستطيع إلا أن أقول فى النهاية إنه سبحانه "يرزق من يشاء بغير حساب".

وحين أكتب لك رسالتى هذه لا أعرف حتى الآن إذا كان ما فعلته وأنا شاب صغير خطأ أم صوابًا وأولادى لا يعرفون شيئًا صريحًا عن كيفية زواجى بأمهم، لكنهم يعرفون فقط أننا تزوجنا صغيرين جدًا فهل تنصحنى بأن أحكى لهم كل شىء بالتفصيل، أم بأن أتجاهل الأمر أيضا؟.. إننى بعد كل هذه السنين مازلت واقعًا فى غرام أمهم هذه التى مازلت أراها فى خيالى حتى الآن وهى بزى المدرسة الثانوية فماذا تقول فى هذا الشأن.. وفى قصتى كلها؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

قصتك يا صديقى جرت كلها منذ البداية ضد كلِّ ما يقضى به العقل والحكمة وتجارب الحياة، ورغم ذلك فلقد أثمرت ثمارًا طيبة يندر أن تثمرها أية قصة مماثلة لها فى تفاصيلها، لهذا فأفضل ما يقال عنها هو ما يقوله الفقهاء عادة عن غريب الرأى فى بعض الفتاوى حين يخالفونها بأدب ويحترمون علم أصحابها فى نفس الوقت لصائب

اجتهادهم فى فتاوى أخرى فيقولون عن ذلك: "يبقى الشاذُ من الفُتيا كما هو.. ولا يُقاس عليه"!.

أو ما يقوله بعض المؤرخين حين يرصدون بعض التحركات أو القرارات التى تعتبر خاطئة بالمقاييس المتعارف عليها، لكنها رغم ذلك قد أدت إلى نتائج لم تكن متوقعة فيقولون عن أمثالها: لقد كان القرار خاطئا بكل المقاييس.. لكن نتائجه.. جاءت باهرة!

ولأن الاستثناء مهما تعددت حالاته لا يصلح أبدًا لأن يصنع قاعدة أو أن يُقاس عليه، فإنى أقول لك إن ما حققه حب المراهقة فى حياتك من تحولات ونتائج يستحق أن يقال عنه إنه كان "الخطأ" الذى جاءت نتائجه باهرة بحق. فحبُّ المراهقة يا صديقى ليس حبًا حقيقيًا يصمد للزمن، كما أنه لا يعبر غالبًا عن شخصية الإنسان الذى ستصاحبه إلى نهاية العمر، وإنما هو غالبًا عاطفة مشوشة مغلفة بالأحلام معرضة للتقلب والتغير مع تغير المزاج النفسى للإنسان الرشيد وتخلصه من مزاج المراهقة المتقلب. ولهذا فإن أكثر من 90٪ من حالات زواج المراهقين الذين يتحدون الأهل فى أوربا وأمريكا ويتزوَّجون رغما عنهم وهم دون العشرين أو حولها تنتهى إلى الفشل والانهيار بعد بضع سنوات، خاصة بعد إنجاب الأطفال وتزايد صعوبات الحياة عليهم. لكن زواج المراهقين قد نجح فى حالتك وصمد وأثمر ثماره

الطيبة رغم الصعوبات والأهوال التى واجهتكما. وحين فكرت طويلاً فى أسباب نجاحه وصموده رغم الصعوبات والتحديات لم أجد سببًا مقنعًا لثبات مشاعر المراهقة المتقلبة وتحولها إلى حب حقيقى يتحدى الزمن إلا فى هذه الصعوبات والتحديات نفسها!، فالصعوبات قد استثارت فيكما إرادة التحدى والكفاح للحفاظ على الأسرة التى تحملتما هذا العناء لتكوّناها. ونبذ الأهل وازدراؤهم لكما وتوقعهم الفشل المدوى لكما بعد أعوام قليلة قد استنفر فيكما أيضًا كل ملكات الإرادة والرغبة فى النجاح تجنبًا لشماتة الشامتين!

أما أكبر العوامل المؤثرة فى ذلك بغير شك فيتمثل فى هذه القبيلة الصغيرة العجيبة التى تكونت لديكما سريعًا خلال ثلاث سنوات فقط، وضمت 6 أطفال صغار لا يزيد فارق العمر بين كل "زوج" منهم على عام واحد!.

لقد صهرتكما هذه القبيلة من الصغار فى بوتقة واحدة وأذابت معكما كل نظريات علم النفس عن المراهقة وتقلباتها فيها! فستة أطفال صغار متقاربو الأعمار بهذا الشكل العجيب كفيلون بكل تأكيد بأن يصرفوا الإنسان عن أى شىء آخر فى الحياة سوى الحفاظ على هذه الثروة الإنسانية.. والوصول بها إلى بر الأمان.

ومشاكل الإنسان كثيرة يا سيدى.. لكن أكثرها نبلاً بلا منازع هو

عناؤه لأن يوفر لأبنائه وأعزائه غدا أفضل من يومه هو نفسه أو أمسه، وهو حين يسعى إلى ذلك مخلصًا وعارقًا يكون أحد ثلاثة "حقٌّ على الله عونهم" كما جاء فى مضمون الحديث الشريف، لهذا فلا غرابة فى أن تُختار أنت للعمل كمشرف رياضى بالجامعة مع أنك لم تكن أفضل المتقدمين لهذا العمل كما تقول، ولا فى أن تأتيك فرصة العمل فى الخارج فى الوقت المناسب بعد أن شقيت سنوات طويلة من السادسة صباحًا حتى منتصف الليل لكى تريحك من هذا العناء ولا فى أن تتخلص من متاعبك المادية وتعرف الرخاء والوفرة والقدرة بعد طول العناء.. لأنك قد دفعت ضريبة الكفاح كاملة وأخلصت الودَّ لمن أخلصته لك وتحملت معك هذه الرحلة البطولية.. ثم.. وهو الأهم.. لأنكما فى النهاية قد صححتما أخطاء اندفاع الشباب واسترضيتما أبويكما فرحلا عن الحياة صافحيْن عنكما.

إنك تقول لى إنك لا تعرف لماذا تروى لى قصتك.. وأنا أصدقك فى ذلك وتفسيره عندى أنه يعكس رغبة الإنسان الغريزية فى الإفضاء بما يطوى عليه صدره لمن يشاركه الاهتمام به. وليس من الضرورى أن يكون ما يريد الإنسان أن يفضى به للآخرين آلامًا وهمومًا وحدها، وإنما قد يكون ذلك أيضًا تأملات أو مراجعة لمشوار الحياة ودروسها أو إنجازًا يريد المرء أن يسجله ويعتز به أو يتأكد من صوابه أو يعيد تقييمه.

وأنت تسألنى بعد ذلك هل من الحكمة أن تصارح أبناءك بكل تفاصيل قصة زواجك من أمهم.. ورأيى أنك لست فى حاجة لأن تروى لهم أى تفاصيل قد تُسهم فى خلق الانطباع لديهم بأن نموذج تحدّى الأهل والخروج على طاعتهم فى سن الشباب المبكر أو المراهقة يمكن أن يثمر مثل هذه الثمار الباهرة من أبناء متفوقين مهذبين مثلهم وزوجيْن متحابيْن ومتعاونيْن على رحلة السنين مثلكما!!

كما أنك لست فى حاجة بالطبع لأن تروى لهم أية تفاصيل قد تمس بوعى أو بغير وعى رمز الأم أو رمز الأب فى مخيّلتهم، وخاصة مما عميت عليه فى رسالتك، وإنما يكفى فقط أن تروى لهم إجمالاً عن الصعوبات التى واجهتكما كزوجين صغيرين شابين لم يتوقع لهما كثير من الأقارب أن ينجح زواجهما لكنهما تحملا ظروف حياتهما بصبر ودأب وتعاون على أنواء الحياة حتى وصلا معًا إلى أقصى مما كانا يحلمان به ومازال الحب والاحترام المتبادلان يجمعان بينهما، وبهذا يتحول الخطأ القديم إلى "مثال" إيجابى يحث على الكفاح وإعلاء قيم الحب والصبر.. والتعاون فى أذهانهم وليس العكس.

مع صادق تمنياتى لك بدوام السعادة والهناء ومع رجائى لأبنائك الأعزاء بألا يكرروا نموذج القبيلة سريعة التوالد هذه فى حياتهم الخاصة حتى لا تجد أنت نفسك بعد بضع سنين جدًّا لـ 36 حفيدًا دفعة واحدة.. وشكرًا لك على رسالتك والسلام.

***

ربما تتصوَّر يا سيدى أن مشكلتى هيِّنة بالقياس إلى المآسى الآخرى التى تنشرها، لكنى أؤكد لك أنها مشكلة حياتى التى لا أعرف كيف أواجهها أو أحتملها، فأنا سيدة فى السابعة والثلاثين تزوجت لمدة 3 سنوات متقطعة ولم أسترح فى زواجى لأسباب تتعلق بزوجى ولا يد لى فيها.. وقد انتهى الأمر بيننا بأن طلقنى غيابيًا ولم يعطنى حقوقى ولم أطالبه بشىء وانطوت هذه الصفحة بخيرها وشرها من حياتى إلى الأبد ورجعت إلى بيت أبى.. فبدأت متاعبى التى مازالت مستمرة إلى الآن فنحن 6 شقيقات وولد واحد تزوجت منا خمس وعدت أنا بفشلى إلى بيت أبى، ولم يكن به حينذاك سوى أخى الذى يصغرنى بخمس سنوات وأختى التى تصغرنى بسبعة أعوام، ولقد كان من الممكن أن تكون حياتى بينهم هادئة تعوضنى عن مرارة الإحساس بالفشل.. لكن ذلك لم يحدث لسبب مهم هو أن أمى سيدة مِضْيافة خلقها الله سبحانه وتعالى تعشق الضيوف وتحب "الوَنَس" والزحمة، لهذا فباب شقتها مفتوح كل يوم ككازينو الانشراح من التاسعة صباحًا حتى الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل، وفى أى وقت لابد أن تجد فى صالة الشقة ضيوفًا بأولادهم إلى جانب بعض شقيقاتى المتزوجات الأربع وأزواجهن وأولادهن وأهل أزواجهن، والكل يتكلمون بصوت عالٍ ويحكون، وأعود أنا من عملى مرهقة كل يوم

فأجد صالة "الكازينو" كاملة العدد بالرجال والسيدات والجيران والأطفال.. فأدخل حجرتى التى أتقاسمها مع أختى.. وهكذا بلا انقطاع ولا أجازة فى يوم من الأيام.. ولم أحتمل كل هذا الضجيج فأصابتنى حالة من الضيق النفسى أصبحت معها لا أريد أن أرى أحدًا أو أسمع أحدًا، وأصبحت أعود من عملى فأسرع بالاختباء فى غرفتى التى أتقاسمها مع أختى وأظل بها حتى موعد خروجى للعمل فى الصباح التالى، وبعد معاناة نفسية طويلة قررت أن أغيّر هذا الوضع مهما كانت العواقب. وتركز حلمى البرىء فى أن أستطيع أن أبنى فوق سطح البيت الذى نعيش فيه ويملكه أبى أربعة جدران لها سقف وباب أستطيع أن أغلقه على نفسى، لكن ذلك سوف يستغرق سنوات وسنوات وأنا لا أستطيع احتمال حياتى أكثر من ذلك يومًا آخر فماذا أفعل؟ لقد بحثت عن عمل مسائى يتضمن المأوى فوجدت عملاً إضافيًا كمشرفة ليلية فى إحدى دور الرعاية واسترحت لانفرادى بنفسى فى حجرة صغيرة مفروشة بالموكيت وأقبلت على عملى الصباحى فى وظيفتى وعملى المسائى بكل حماس ونشاط وبدأت أدخر كل قرش أستطيع ادخاره لكى أحقق حلمى الجرىء.. وبدأت رحلة الألف ميل خطوة خطوة.. فقمت بعد بيع شبكتى الذهبية بتنفيذ صبة الخرسانة لشقة صغيرة من حجرة وصالة لأجلس فى بيتى بهدوء وشهرا وراء شهر استطعت أن أسدد آخر أقساط الشاب الذى قام بتشطيب الشقة، واشتريت موقد بوتاجاز وسخانا بالتقسيط من أحد

المعارض وأصبحت أعود من عملى كل يوم فأدخل إلى شقة أبى فأجدها كاملة العدد كالعادة فأحيِّى الحاضرين وأسرع بالصعود إلى شقتى لأستمتع بالهدوء والراحة، وفى وقت الأصيل أدعو أبى وأمى لتناول الشاى معى وأسعد باستضافتهما فى "بيتى" بعض الوقت.
واقترب موعد زواج أخى.. فإذا بأبى وأمى يقرران أن يتنازلا له عن شقتهما وهى من 3 غرف وصالة ليتزوَّج فيها، وأن يُقيما معى فى شقتى الصغيرة ذات الحجرة الواحدة والتى بنيتها بدمى وعرقى فى 6 سنوات طويلة! وكدت أصاب بالجنون حين أدركت ذلك وأسرعت إلى شقيقاتى أستجير بهن وأيدننى جميعًا فى أن هذا ظلم لى بعد أن سففتُ التراب فى بناء هذه الشقة لأخلو فيها لنفسى فى حين أن أخى لم يفعل شيئًا فى حياته ولم يكافح يومًا واحدًا وقد فصل من الكلية ولم يكن يساعد أبى فى محله الذى يتكسب منه رزق الأسرة وعاتبتْ شقيقاتى أمى فبكت وسألتهن: وأين نذهب نحن! ولم يكن هناك مفر من الإذعان وتزوج أخى فى شقة الأسرة بعد أن قدم له أبى المهر والغسالة الفول أوتوماتيك والسجاجيد الفاخرة والسخان، وقدمت له أمى طقم الصينى الخاص بها والذى لم تفز إحدى بناتها بقطعة منه وأكثر من ذلك فقد سلمه أبى المحل الذى يتعيَّش منه! فضلاً عما خلفه لأبى من ديون لا حصر لها بسبب الزواج وكل شىء يهون لأنه الولد.. ولا يصح كما تقول أمى وأبى أن يتعب فى شىء! واستقر شقيقى فى المسكن الواسع وتنازلت لأبى وأمى عن الغرفة الوحيدة بشقتى

ونمت على الكنبة فى الصالة.. وشيئًا فشيئًا بدأ الكازينو القديم يفتح أبوابه ويستقبل رواده من التاسعة صباحًا حتى الثانية بعد منتصف الليل، وإذا جاء إلينا ضيوف من خارج المدينة التى نعيش فيها ألحت عليهم أمى أن يمكثوا لدينا بضعة أيام! فيبيت الجميع على الأرض وفوق الكنبة دون أن تفكر مرة فى أن تهدى بعض هؤلاء الضيوف لأخى فى شقته الواسعة حتى لا تعكر مزاجه! لقد عدت إلى أسوأ مما كنت فيه قبل سنوات.. فلقد كنت أعيش من قبل على أمل واحد هو الانفراد بنفسى.. والآن لم يعد لدىَّ حتى هذا الأمل.. وقد عُدْت للتشرد فى أيام عديدة حين أضيق بحياتى بين بيوت صديقاتى.. وعجزت عن مواصلة الدراسة بالمعهد حتى أنى أفكر فى تقديم اعتذار عن عدم دخول امتحان البكالوريوس هذا العام مع أن الدراسة هى الشىء الوحيد الجميل فى حياتى.. فماذا أفعل يا سيدى؟ إننى أرجوك ألا تقل لى "وبالوالدين إحسانًا" فهما لم يُحسنا إلىَّ مع الأسف ولا تُذكرنى بما قاله الرسول ﷺ عن الأم والأب، فالرسول أيضًا هو الذى قال: اعدلوا بين أبنائكم ولو فى القُبل، وإنما أرجوك أن تقول لى شيئًا يبرد من نارى.. فأبى يقول حين يأتى ذكرى.. ربنا يشفيها فهل أنا مريضة حقًا؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا يا سيدتى لست مريضة ولا مُغالية فى ضيقك بما فعل أبواك حين

حرماك من خصوصيتك وهدوئك فى مسكنك الصغير الذى كافحت هذا الكفاح المرير لتحقيق حلمك فيه. ولا علاقة لذلك أبدًا ببرِّ الأبوين أو بحقوقهما على الأبناء، إذ لو لم يكن لهما مأوى سوى مسكنك لما كان لك أن تتضررى من انتقالهما للإقامة معك حتى ولو دعيا إلى مسكنك كل يوم كلَّ ضيوف الأرض، فالبر بالوالدين يطالبنا فى هذه الحالة بألا نتردد لحظة فى التضحية براحتنا وخصوصيتنا من أجلهما حتى ولو ضقنا بذلك فى أعماقنا، أما أن يضعا نفسيْهما فى مثل هذا الوضع باختيارهما.. ولمجرد أن يحلا مشكلة ابنهما المفضل على حسابك ورغما عن إرادتك.. فهذا أمر آخر بكل تأكيد. إذْ إننا حتى لو سلمنا لهما بحقهما فى أن يخصا أحد أبنائهما بأفضل عطائهما وهو ماليس من حقهما شرعًا ودينًا فليس من العدل ولا من الإنسانية أن يهبا لأحد أبنائهما "أفضل العطاء"، على حساب "أتعس الأبناء" الذين لم ينالوا منهما بعضه حين كانوا فى أشد الحاجة إليه. ولا من العدل أيضًا أن يعطى الأبوان كل ما يملكان لأعز الأبناء ثم ينتظران من "غير الأعزاء" أن يتحملوا وحدهم كل المسئولية عنهم مع إعفاء "المفضَّل" فى نفس الوقت من كل تبعة أو مسئولية عنهما.

فالأمر بالعدل بين الأبناء مطلق وشامل.. من العَطية إلى القُبْلة.. ولم يستثن حتى الابن العاق من حقه فى العطية والمساواة فى الحقوق رغم عقوقه لأن كل خطيئة حسابها على حدة.. لكن المؤسف حقًا هو

أن من يحيدون عن العدل والمساواة فى معاملة أبنائهم يطالبون عادة غير المميزين من أبنائهم بأن يقدموا دائمًا قرابين التضحية للابن "المختار" مصحوبة "بابتهاجهم" العارم باغتصابه لحقوقهم وربما كان فى أغلب الأحوال أكثر الإخوة أنانية وأقلهم عاطفة تجاه أخوته وأقل الأبناء جميعًا رفقًا وحنانًا فى نفس الوقت بأبويه! ولا عجب فى ذلك لأن ريِّ الشجرة بماء الظلم والتمييز لا يمكن أن يثمر إلا ثمرة عَجْفاء مشوهة وليست سوية نفسيًا وغير قادرة على العطاء المادى أو العاطفى لأقرب البشر إليه. وهل ينتظر الآباء ثمرة أفضل من ذلك من أبناء استحلّوا لأنفسهم اغتصاب حقوق إخوتهم بدعوى أنها عطية لهم منهم وهم يعلمون جيدًا بطلانها وحرمتها ما لم يستسمحوا شركاءهم فيها وهم أخوتهم فيسمحون لهم بها بنفس راضية ودون أدنى ضغط أدبى أو نفسى أو حرج أو حياء؟ إنها خطيئة متبادلة بين الآباء وبين أبنائهم المميزين وحساب كل طرف عنها مع ربه عسير، ويكفيها إثمًا وبؤسًا أنها تُفسد صفاء العلاقات الأخوية وتنفث فيها فحيح الحقد والضغينة والمشاعر العدائية خلافًا لما أرادها الله سبحانه وتعالى عليه من صفاء ومحبة وطُهْر. ألم يتخلص إخوة يوسف من أخيهم لمجرد أنهم قد توهموا أن أباهم يعقوب يُؤْثره بحبه وليس بعطاياه؟ فما بالك إذن بما يفعله إيثار أحد الأبناء بالحب والتدليل وصكوك الغفران المفتوحة لكل خطاياه وأخطائه، ثم بعد ذلك كله بالعطايا والمزايا

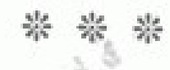
المادية التى تنعكس على حياة غيره من الإخوة بالعناء؟ لهذا أكررها مرة أخرى إن إثم الموهوب له الذى يستحل قبول ما يعلم جيدًا أن إخوته قد حُرموا منه أو لم يُعطوا مثله أو لم يسمحوا به راضين لا يقل شناعة عن إثم الواهب نفسه، وليس العذر بالجهل بحرمة ذلك وبطلانه مقبولاً من جانب كلا الطرفين لأن العدل والمساواة بين الأبناء فطرة لا تحتاج إلى تعليم ولا محاضرات دينية، ولأن الواهب والموهوب له يدركان دائمًا بالغريزة والإحساس أنهما يفعلان ما يتحرجان من مواجهة باقى الإخوة به ويميلان عادة لتكتمه عنهم، ولو كان أمرًا لا شبهة فيه لما تكتماه أو حاولا ذلك وفى حالتك أنت فقد تعذر تكتمه لأنه واضح للعيان ولو أمكن ذلك لما تردد أبواك وأخوك فيه.

تسألينني بعد ذلك ماذا تفعلين وأكاد أجيبك صادقًا إنى لا أعرف حلاً متاحًا وميسورًا لمشكلتك فى المدى القريب.. فتكرار الحلم الجرىء مرة أخرى ضرب من المستحيل فى مثل ظروفك.. والمعجزة لا تتحقق دائمًا مرتين، لكن لماذا لم يفكر أبواك وهما مشغولان بتدبير تكاليف زواج ابنهما المفضل ـ إلى حد الاستدانة ـ فى إضافة "المسكن" أيضًا إلى شواغلهما.. ولماذا لم يشركاك معهما فى تفكيرهما فلربما أسفر التفكير المشترك عن مشروع جديد لإضافة حجرة جديدة بحمام لمسكنك تستقلين بها، ويمكن أن يكون لها باب خارجى على السطح

يحقق لك الخصوصية التى تفتقدينها ولو أدى ذلك إلى إضافة بعض الديون الجديدة إلى ديون الزواج؟

وما داما لم يفعلا فلماذا لا يفكران فى ذلك الآن ولو تطلب تنفيذه سنوات أخرى.. ولماذا لا يشاركهما الابن العزيز المسئولية بدفع قسط شهرى يُسهم فى إضافة هذه الغرفة باعتباره أحد المسئولين الرئيسيين عن معاناتك؟ إن ذلك لو تحقق قد يكون حلاً لمشكلتك الحالية بعد فترة ملائمة.. لكنه ليس الحل النهائى لها.. فالحل النهائى لمشكلتك هو أن تبدئى حياة جديدة مرة أخرى يكون لك فيها زوج ومسكن مستقل واهتمامات جديدة تخفف عنك عناء الوحدة والغربة وسط الزحام.. وأيضًا مرارة الإحساس بالفشل فى حياتك العائلية الأولى.. وذلك فى تقديرى من أهم أسباب عزلتك ونفورك من مجتمعك العائلى وزحامه وضيوفه وأطفاله.. فالوحدة المزمنة كما قد تورث الإنسان حنينا دافقًا للصحبة والأهل والبشر، قد تورثه فى حالات أخرى نفورًا من الصحبة وعزلةً وعجزًا عن الاندماج فى العلاقات العائلية والاجتماعية، فتصبح فى هذه الحالة "توحدًا مع الذات" وانفصالاً عن الآخرين وليست مجرد وحدة. فراجعى نفسك فى ذلك يا سيدتى.. فأنت فى حاجة إلى استعادة قدرتك على الاندماج فى المجتمع العائلى مهما كانت تحفظاتك عليه، ومع الحفاظ على القدر الصحى المأمون من الاستقلالية والخصوصية، أما دراستك فهى ملجؤك الأخير للخروج

من حالة الإحباط العام التى تعيشينها الآن ونصيحتى لك ألا تهمليها أبدًا مهما كانت الأسباب وألا تعتذرى عن عدم دخولك امتحان هذا العام فأنت فى حاجة إلى المزيد والمزيد من الانشغال بالاهتمامات الجديدة والمفيدة وليس العكس.. وشكرًا.



أكتب إليك رسالتى هذه بعد أن قرأت رسالة "الحلم الجرىء" للسيدة التى كافحت لتبنى لنفسها مسكنًا مستقلاً عن أبويها، فتنازل الأبوان عن مسكنهما لشقيقها ليتزوج فيه وانتقلا للإقامة معها فى شقتها وتشكو من ضيوفهما وافتقادها للخصوصية.. وأريد أن أروى لهذه السيدة ولك قصتى مع الحياة.. فلقد نشأت يتيمة الأبوين أعيش مع أختين وشقيق أنا أكبرهم فى رعاية خالى.. وحين شارفت على السادسة عشرة من عمرى زوَّجنى خالى لشاب يكبرنى بـ 15 عامًا، وأنا مازلت تلميذة بالمرحلة الإعدادية ولم أعترض على هذا الزواج ولم أنزعج له بل وجدت فيه تخفيفًا عن خالى الذى تحمل مسئوليتنا بعد وفاة أبوينا، وانتقلت إلى بيت زوجى بنفسية لم تعرف من الدنيا سوى الآلام ومستعدة لتقبُّل كل ما تأتى به الحياة من خير أو شرّ. وواصلت تعليمى فى المدرسة الإعدادية وأنا فى بيت زوجى، وبعد ثمانية شهور فقط من الزواج اكتشفت أن لزوجى طفلة عمرها 5 سنوات من زوجة سابقة انتقلت إلى رحمة الله.. فلم أغضب لذلك بل ضممتها إلى بيتى.. ووجدت فيها صورة مكررة من طفولتى كطفلة يتيمة فأغدقت عليها من حنانى وعطفى ولم تختلف علاقتى بها عن علاقتى بإخوتى الصغار، فكنت ألعب معها وأشعر بأن زوجى هو أبونا نحن الاثنتين.

ورضى زوجى عن ذلك.. واطمأن خاطره من هذه الناحية. وخلال عامين من زواجى أنجبت طفلاً ثم طفلة، وأصبحت أسرتى مكونة من ثلاثة أطفال صغار قبل أن أبلغ التاسعة عشرة ولم يبخل علىّ زوجى بشىء وساعدنى فى مواجهة الحياة وساعد إخوتى أيضًا فى تعليمهم فواصلوا التعليم حتى حصلوا على شهادات متوسطة وعملوا، وحصلت أنا أيضًا بعد بضع سنوات على شهادة متوسطة وعملت بإحدى الهيئات الحكومية، وبعد أن كبر أبنائى قليلاً عُدْتُ للدراسة من جديد وتقدمت لامتحان الثانوية العامة "منازل" وحصلت على الشهادة والتحقت بإحدى كليات التجارة.

ثم تعرَّض زوجى فجأةً لحادث تصادم مروِّع أُصيب فيه بإصابات بالغة وتحطمت سيارته التى كان يعتمد عليها فى العمل بمشروع للنقل مع إخوته. وفقدت أسرتى موردها الأساسى وأصبح مرتبى الصغير هو مورد الدخل الوحيد لنا وأجريت لزوجى عمليات جراحية عديدة خرج بعدها إلى البيت وبقى فيه شهورًا طويلة عاجزًا عن الخروج للعمل. وحزنت لما أصاب زوجى من غدر الدنيا وتذكرت له ما قدمه لى ولإخوتى حين كان قادرًا على الكسب والعطاء، خاصة وهو لم يتزوجنى فقط وإنما تولى تربيتى أيضًا وتربية إخوتى بعد ارتباطه بى، فنهضت لأردَّ له ديْنه علىَّ وعلى إخوتى ولم أدع عملًا صغيرًا أستطيع أن أقوم به لتوفير بضعة جنيهات دون أن أفعله، وكلما أعوزتنى الحاجة

بعث شيئًا من أجهزة البيت المنزلية حتى أتيت عليها جميعا وعلى بعض الأثاث أيضًا وتعلمت الخياطة لأوفر بضعة جنيهات أخرى، وبدأت أتعلم الإنجليزية والكمبيوتر لأستطيع أن أجد عملاً إضافيًا بعد الظهر أكمل به احتياجات زوجى وأولادى. وذات يوم احتجت إلى بضعة جنيهات وضاقت بى الحياة فغادرت بيتى وقت الأصيل إلى الفكهانى القريب لأقترضها منه، ورأتنى سيدة فاضلة من جيراننا فى هذا الموقف والجميع يعرفون ظروفى، فعرضت علىَّ مساعدتى عن طريق زوجها فى إيجاد عمل لى فى الخارج حتى يستردَّ زوجى صحته ويخرج للعمل وصدقت السيدة فى وعدها، فبعد شهور وفر لى زوجها بالفعل عملاً كموظفة بمستشفى خاص بإحدى الدول العربية وتقدمت بطلب أجازة دون راتب للهيئة التى أعمل بها فرفضته.. فلم أتردد فى السفر معرِّضة نفسى للفصل بسبب الغياب وقلت لزوجى إننى لا أريد منه أن يرهق نفسه بأى عمل خلال سفرى بل وألا يغادر بيته حتى لا يتعرض لمكروه بعد العمليات الجراحية العديدة التى أجراها، وسوف أرسل إليه من مقر عملى كل ما يزيد على احتياجاتى الضرورية هناك، وسافرت إلى مقر عملى وادخرت كل قرش استطعت ادخاره ومارست الخياطة لزميلاتى فى المستشفى بأجر بسيط وبدأت أرسل لزوجى بانتظام مبلغًا شهريًا إلى جانب ما يتجمَّع لدىَّ من مدخرات حتى استطاع شراء أثاث جديد للبيت وكل الأجهزة الضرورية التى بعناها خلال المحنة. وعدت فى الأجازة بعد

عام طويل محمَّلة بالهدايا لزوجى وأولادى وسعدت برؤيتهم، لكنى أحسست بأن زوجى مرهق بأعمال البيت وخدمة الأولاد الصغار التى يقوم بها وحده وأن ملابس الأطفال ليست نظيفة.. ونظافتهم الشخصية ليست كما أحب فقررت أن أرتب لهم خلال غيابى خدمة أسبوعية منظمة عن طريق سيدة أردت ألا تكون مجرد شغالة بالمعنى المعروف، وإنما ربة بيت محترمة وتحتاج إلى زيادة دخلها عن طريق هذا العمل.. وتستطيع أن تحضر إلى بيتى مرة فى الأسبوع فترعى أولادى وتغسل ملابسهم وتعد لهم طعام الأسبوع، وبحثت عن مثل هذه السيدة حتى وجدتها فى شخص أرملة من أقارب بعض جيراننا واتفقت معها على أداء هذا العمل.. واسترحت لما لاحظته عليها من أمومة وحنان بأولادى، فضلاً عن مظهرها الراقى. وسافرت مطمئنة إلى راحة زوجى ورعاية أولادى، وفى بداية العام التالى أرسلت لزوجى حوالى سبعة آلاف جنية ليجدِّد بها سيارته جمعتها من الخياطة والمرتب وادخار الجمعيات مع زميلاتى، وواظبت بعد ذلك على إرسال المبلغ الشهرى المنتظم، وقرب نهاية عامى الثانى فى العمل تعرضت لمشكلة طارئة سببها باختصار زوج السيدة صاحبة المستشفى الذى ظهر فجأة بعد مرضها ليقوم بعملها نيابة عنها.. ولم يعجبه "تزمتى" الأخلاقى معه فحنق علىَّ واستصدر أمرًا بترحيلى فى نفس اليوم، وقبل سفرى ساعدنى رجل مصرى فاضل يعمل هناك فى استخلاص كل ما استطاع التوصل إليه بالجهود الودية من مستحقاتى

ومكافأة نهاية الخدمة.. وكانت حوالى أربعة آلاف جنيه مصرى تسلمتها وحملت حقيبتى وركبت الطائرة فى الليل عائدة إلى بيتى وأسرتى على غير انتظار، ووصلت الطائرة إلى القاهرة فى الحادية عشرة مساء وركبت سيارة أجرة إلى بيتى ووصلت إليه قرب منتصف الليل وتهيأت لوقع المفاجأة على زوجى وأولادى وسمعت وأنا أقف أمام باب الشقة صوت التليفزيون من الداخل فاطمأننت إلى أن زوجى وأولادى مستيقظون ثم دققت الجرس وانفتح الباب عن زوجى يرتدى تريننج سوت أنيق أرسلته إليه من هناك.. وفوجىء بوجودى.. وفوجئت أنا باضطرابه غير المتوقع.. وحييته ودخلت أحمل حقيبتى فرأيت مشهداً لن أنساه ما بقى لى من العمر.. فلقد رأيت السيدة الأرملة التى رتبت حضورها لرعاية أولادى مرة كل أسبوع تجلس فى استرخاء بفستان بيت جميل أمام التليفزيون وحولها أولادى الثلاثة يجلسون فى اطمئنان وأمامهم طبق مملوء باللب والسودانى.. والأطفال ملابسهم نظيفة وصحتهم جيدة.. وحالتهم النفسية طيبة.. وليس فى المشهد شىء يختلف عن مشهد سهرة عائلية سعيدة فى بيت أسرة مستقرة سوى أن الأم والزوجة هى التى تقف أمامه مذهولة وفى يدها حقيبة سفر.. وأن الأخرى "الغريبة" هى التى تتصدره!

واستعدت تنبهى سريعا وصرخت فيها سائلةً عن سبب وجودها

فى بيتى فى مثل هذه الساعة من الليل فنظرت إلىّ صامتة ولم تُجب ولم تتحرك من مكانها وإنما تحرك أولادى وأسرعوا إلىّ يحتضنوننى فاحتضنتهم وأنا غائبة عنهم بمشاعرى وفكرى.. وصرخت متسائلة عن معنى ما أراه.. فازداد اضطراب زوجى وطلب منى عدم الصياح واصطحابه للغرفة الداخلية ليشرح كل شىء.. وشرح لى كل شىء يا سيدى وهو أنه قد تزوج من هذه السيدة منذ شهور. وأننى "السبب" فيما حدث والمسئولة عنه وليس من حقى الاعتراض عليه، خاصة أننى قد نسيت احتياجاته "الإنسانية" فى صراعى مع الحياة! ونظرت إلى المرأة الجالسة فى الأنتريه فتنبهت للمرة الأولى إلى أنها "امرأة" بكل معنى الكلمة وأن زوجى رجل فى النهاية.. لكننى لم أشعر بالغيرة عليه من قبل.. ولم ينس زوجى أن يذكّرنى بأنه صاحب فضل علىّ وعلى إخوتى ولا داعى للفضائح فغصَّ حلْقى بالكلام وطلبت منه الطلاق وغادرت البيت مصطحبة أولادى معى فى الثالثة صباحًا إلى بيت خالى.

وحصلت على الطلاق بعد أيام فى هدوء وبلا منازعات وتنازلت لزوجى عن كل حقوقى عليه، وبالطبع عن كل ما أرسلته لزوجى خلال فترة عملى فى الخارج والذى جدَّد به أثاث البيت واشترى الأجهزة المنزلية واشترى سيارة أخرى مستعملة شارك بها من جديد

فى مشروع النقل.. ويزيد مجموعه على ثلاثين ألف جنيه.. ومع ذلك فلم أهتز لفقدها وإنما هزنى حقا مشهد أولادى وهم يجلسون فى اطمئنان حول الأخرى كأن هذه هى حياتهم العادية.. التى اعتادوها منذ زمن طويل.

وبالمبلغ الصغير التى حصلت عليه من مستحقاتى عند العودة حصلت على شقة صغيرة من غرفتين بأحد الأحياء النائية وبدأت أواجه الأمر الواقع بامتثال لما شاءته لى الأقدار. ولم يتخل عنى الله سبحانه وتعالى فى محنتى بل يسَّر لى طريق العمل بسهولة غريبة. فلقد أعلنت الهيئة التى كنت أعمل بها قبل سفرى عن مسابقة وظائف فتقدمت إليها ونجحت.. وعُينت بها كموظفة جديدة وبعد تعيينى ضمت لى مدة خدمتى السابقة بها. كما عدت أيضًا لاستئناف دراستى الجامعية ونجحت فى امتحان السنة الثالثة ووصلت هذا العام إلى السنة النهائية.. أما أولادى الثلاثة ومنهم ابنة زوجى التى أعتبرها ابنتى فهم الألم الذى لم تداوه بعد الأيام فى حياتى.. فبعد انتقالى لشقتى الجديدة لم أستطع أن أوفر لهم مستوى الحياة الذى اعتادوه فى بيت أبيهم كما أنهم أكثر ارتباطًا بأبيهم الذى عاش سنوات بعد الحادث فى البيت متفرغًا لهم.. فضمَّهم أبوهم إليه وبعد أن كانوا يقيمون معى ويذهبون إليه فى نهاية الأسبوع أصبحوا يقيمون معه ويأتون لزيارتى مرة كل أسبوع، ورغم أنى لست قلقة كثيرًا بشأنهم لأن "الأخرى"

وهذه من عجائب الدنيا التى لم تتكرر كثيرًا إلا معى.. حنونة معهم وتحبهم بصدق ويحبونها ولا يشعرون معها بغربة.. وهم وسط الأهل والأصدقاء فى حين يضيقون بمسكنى البعيد عن كل أصدقائهم وأقاربهم، والذى يؤلمنى حقًا يا سيدى هو أننى أحس بأننى لا آخذ من أبنائى الثلاثة بقدر ما أعطيتهم من حبى وحنانى وعطائى طوال السنوات الماضية. أما زوجى فلست أحمل له مشاعر عدائية رغم ما حدث بيننا ولم أنس له فضله على أخوتى ولا أعتبره قد أساء إلَىَّ طوال عشرتى معه إلا فى هذه المفاجأة القاسية فقط عند عودتى من الخارج والتى يفسرها هو بأننى نسيت فى صراعى مع الدنيا أننى زوجة، ومع أن هذا الصراع كان من أجله ومن أجل أولادى إلا أنى أجدنى فى أحيان كثيرة أُقِرُّه على ما قال وألوم نفسى لنسيانى أنوثتى معه، والمشكلة أننى بعد كل ما مرَّ بى من أحداث مازلت فى السادسة والثلاثين من عمرى، ولهذا تقدم لى أكثر من رجل للزواج لكنه لم يتقدم لى مع الأسف إلا رجال آباء ومتزوجون يشكون من زوجاتهم وأحدهم كان رجلاً فاضلاً وكنت على استعداد لأن أرحب به لولا أنه متزوج وأب ويشكو من زوجته أيضًا، لهذا فقد اعتذرت وقلت له: زوجى قد سُرق منى وعانيت مرارة إحساس الزوجة التى يُسلب منها زوجها ولا أريد أن أكون السارقة لزوج امرأة أخرى لعل لها عذرها فيما يشكو منه زوجها، فإن لم يكن لها عذر فيكفيها أنها قد حملت طفل زوجها فى أحشائها تسعة أشهر وتحملت عناء تربيته له.

لكنى أعانى رغم ذلك يا سيدى من الوحدة المؤلمة فى شقتى الصغيرة، وحين قرأت رسالة "الحلم الجرىء" للسيدة التى تضيق بوجود أبيها وأمها معها فى مسكنها تمنيت أن أدعوها إلى مسكنى لتلمس بنفسها أن عذاب الوحدة أقسى كثيرًا من أية مضايقات يمثلها وجود الأب والأم فى حياتها، وأفكر جديا فى أن أعرض على هذه السيدة عن طريقك أن تقاسمنى مسكنى وحياتى وأن تعتبرنى أختًا أو صديقة لها تعانى مما تعانى منه عسى أن تخفف عشرتنا المشتركة عن كل منا بعض ما نعانيه من ظروف الحياة وتقلبات الأيام.. فما رأيك فى ذلك ياسيدى.. وهل تساعدنى فى تحقيقه إذا وافقتنى فيه؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

الجسم البشرى يحارب دائمًا ضد أسباب الموت، وكذلك تفعل روح الإنسان فهى تحارب أيضًا ضد أسباب التعاسة والشقاء بوسائل مختلفة. ومن هذه الوسائل أن نكيِّف آراءنا وحياتنا بما يتلاءم مع الواقع الذى فُرض علينا حتى ولو كرهناه.. وأن نتقبل متغيرات الأيام مهما كانت مؤلمة بروح عملية تتجاوز موقف التجمد أمام ما يؤلمنا والاكتفاء باستنكاره والتعجب منه إلى مرحلة الحركة والبحث عن حلول لمعاناتنا ومشاكلنا، شأننا فى ذلك ـ كما يقول الفيلسوف الفرنسى ديكارت ـ شأن من يضل الطريق فإنه يُنصح بألا يتوقف

حيث اكتشف فقده للطريق وإنما يستمر فى السير إلى الأمام فى خط مستقيم ذلك أنه إن لم يصل إلى غايته فسوف يصل على الأقل إلى نقطة أفضل من تلك التى توقف فيها حين ضلَّ الطريق. وهذا ما فعلته أنت أيضا يا سيدتى بعد أن توقفت ذاهلة أمام مشهد السهرة العائلية المذهل.. فتجاوزت الآلام.. وتخلصت من حياة رأيت أنها لم تتكافأ مع ما قدمت لها من عطاء وإخلاص وتضحية. واتخذت لنفسك سكنًا مستقلاً.. وعدت للعمل والدراسة وواجهت غدر الأيام بروح واقعية.. بل ومتسامحة إلى حد كبير. ولا لوم عليك فى شىء من ذلك، فإن كان ثمة لوم فهو على مَنْ لم يحفظ لك عهدك ولم ينتصر على ضعفه البشرى خلال غيابك، ولم يقدر لك أنك قد اضطررت إلى هذا الغياب مُكرهة لإعالته وإعالة أسرتك بعد أن عجز هو لظروفه الصحية عن الاستمرار فى إعالتها.. لهذا كله فليس عدلاً أن يعفى نفسه من كل لوم ويصبه عليك وحدك محمِّلا إياك مسئولية ما جرى بدعوى أنك فى غمار صراعك مع الحياة لإعالته وإعالة أبنائه قد تغافلت لبعض الوقت عن أنك امرأة، فحتى هذا السبب رغم مشروعيته لا يكفى للغدر بك على هذا النحو البشع.. ولا للاستمتاع بثمرة شقاء زوجته المكافحة.. مع زوجة أخرى لم تنس أنها امرأة.. وليس لديها ما يشغلها عن هذه الحقيقة.. وما كان أسهل تدارك هذا التصور بلفت النظر والرغبة المشتركة فى الحفاظ على الأسرة وإصلاح الأخطاء. لهذا فلست أتوقف

لحظة أمام هذا الادعاء.. لكنى أتوقف فعلا أمام مسئوليتك الأخرى عن زرع هذا الخطر من البداية فى حياة زوجك وأسرتك خلال غيابك. لقد كان وضعًا خاطئًا من البداية يا سيدتى أن تغرسى هذه الأرملة التى اكتشفت بعد فوات الأوان أنها امرأة بكل معنى الكلمة فى بستان زوجك، وما كان لك أن تفكرى فيه من الأصل مراعاة للأصول واتقاء للشبهات وحماية لزوجك من الإغراء، لكنه يبدو لى أن زواجك فى سن السادسة عشرة وأنت صبية يتيمة محرومة من حنان الأب من زوجك المجرِّب الذى تزوج قبلك.. وتولى كما تقولين "تربيتك" وتربية إخوتك قد رسخ فى أعماقك نظرتك إليه كأب أكثر منه كزوجٍ يُخشى عليه من الإغراء. ولعل هذا يفسر لك ما تقولينه من أنك لم تشعرى بالغيرة عليه قبل هذه المحنة مرة واحدة، ويفسر لك أيضًا قيامك بتكليف هذه الأرملة بشئون زوجك وأطفالك فى غيابك بإحساس الابنة التى تريد أن تضمن لأبيها حياة مريحة فى غيابها وليس بإحساس الزوجة التى لا تستريح أبدًا لوجود مثل هذه الأرملة المغرية ذات المظهر الراقى فى حياة زوجها وأبنائها.. وهى غائبة عن بيتها. وأتصور أن هذا هو الخطأ النفسى الوحيد فى علاقتك بزوجك مع تسليمى تمامًا بحسن نيتك وطيبة قلبك وأصالة معدنك التى دفعتك للنهوض بمسئولية الأسرة كاملة وحرمان نفسك من ثمرة عملك فى الغربة لإرسالها كلها إلى زوجك طوال فترة عملك فى الخارج، لكنه

قد حدث ما حدث ولم يعد يجدى النواح على ما ضاع إلا مزيدًا من الحسرة والألم.. ومن المؤسف حقا أنك ممن كتبت عليهم الأقدار أن يُصارعوا الحياة وتصارعهم منذ الصغر ولم يفوزوا حتى الآن بالأمان والسعادة رغم العناء والتضحيات فكأنما انتقلوا من الميلاد إلى الشقاء بغير المرور بمتع الحياة. وأمثال هؤلاء المحكومين بأقدارهم تضعف استجابتهم لدواعى الابتهاج وتفسد عليهم رواسب المرارة أحيانا ما يتاح لهم من أسباب العزاء ويخيل إلىَّ يا سيدتى أن هذه المرارة هى السر فى إحساسك بالأسى تجاه أبنائك وتصورك أنهم أكثر ارتباطًا بأبيهم منهم بك.. وأكثر ارتياحًا فى حياتهم فى بيته معه ومع "الأخرى" من حياتهم معك، وأنك لا تحصلين منهم بقدر ما أعطيتهم.. وهو إحساس مؤلم أرجو ألا تزيدى به من أسباب معاناتك. فالحق أننا جميعًا نكاد لا نحصل من أبنائنا على قدر ما نقدم لهم من عطاء وإنما نعطيهم بقدر ما نحبهم.. وما أعطانا آباؤنا ونحصل منهم غالبًا على ما تسمح لهم به طبيعتهم بتقديمه لنا مع اختلاف الأوضاع بيننا، أما الفارق بين الأخذ والعطاء فإنهم يدفعونه عادةً حسابًا مؤجلاً إلى أبنائهم هم فى المستقبل.. فهكذا فعل آباؤنا ونفعل نحن وسيفعلون هم.. وهكذا تدور الدائرة دائمًا ولا لوم على أحد فى اختلاف المشاعر الغريزية بين الآباء والأمهات وبين الأبناء. ومن الحكمة دائمًا ألا ننتظر من الجميع حتى ولو كانوا أبناءنا الكثير

لكى نسعد بالقليل الذى يقدمونه لنا ونرضى عنه.. فاسعدى أنت أيضًا بما يحمله لك أبناؤك من حب لا شك فيه.. ولا تلوميهم على ما لا حيلة لهم فيه؛ إذْ ليس من العدل أن نلوم الصغار على غدر الكبار بنا أو ضعفهم البشرى معنا؛ وإنما ينبغى أن نلوم مَنْ وضعهم أمام هذا الاختيار القاسى، وأضاف هذا العبء النفسى الجديد عليهم، وعلى أية حال فإن فكرة استضافتك للسيدة كاتبة رسالة "الحلم الجرىء" فكرة طيبة.. ولا بأس أبدًا بالتعزِّى عن الوحدة والهموم بدفء الصحبة الإنسانية والمشاركة الوجدانية خاصة ممن تجمعهم بنا وحدة الظروف والمعاناة وكل ما ييسر من حياة الإنسان ويخفف من آلامه بطريق مشروع مطلوب ومرغوب، لكن هذا الوضع سيبقى حلاً مؤقتًا لكليكما إلى أن يأذن الله بالحل الدائم السعيد وهو الزواج مرة أخرى بإذن الله.



قرأت رسالة "سهرة عائلية".. للزوجة التى أُصيب زوجها فى حادث وقبع فى البيت بلا عمل فكافحت هى لإعالته وإعالة أبنائه وعملت فى الخارج عامين أرسلت إليه خلالهما معظم عائد عملها.. ثم تم ترحيلها وعادت فجأة للقاهرة فوجدت زوجها قد تزوَّج من الأرملة الطروب التى كلَّفتها برعاية أولادها خلال سفرها.. ووجدت "الأسرة" مكتملة فى سهرة عائلية هادئة أمام التليفزيون، فصدمت صدمة العمر وغادرت البيت وحصلت على الطلاق وهى تتعجب مما تفعله الأيام ببعض القلوب.. وأريد أن أروى لك ولهذه السيدة قصتى أنا أيضًا مع الأيام، فأنا رجل فى الخامسة والأربعين من العمر، نشأت فى أسرة عادية متوسطة الحال بين أب طيب وأم حنون وثلاث شقيقات، ولأننى جئت إلى الحياة بعد ولادة متعسرة، فقد كانت أمى شديدة الخوف علىَّ فى طفولتى وتصحبنى معها فى كل مكان تذهب إليه فنشأت على حنان الأم والأب والشقيقات، وكنت دائمًا محور اهتمامهم جميعًا باعتبارى الولد الوحيد، وحين كبرت لم تكن لى أية تجارب عاطفية حتى بعد أن تخرجت وعملت وبلغت الثلاثين من عمرى.. واضطرت أمى لأن تبحث لى بنفسها عن عروس، ورشحت لى ابنة إحدى صديقاتها فى العشرين من عمرها.. والتقيت بها فأعجبنى هدوؤها وتحفظها معى فى فترة الخطبة..

وتطلَّب إعداد شقة الزوجية التى اشتريتها بضعة شهور، لكنها أقنعتنى بأن نتزوج فى شقة أبى وأمى لكى نستفيد بثمن الشقة الأخرى فى حياتنا، خاصة أن شقة أبوىَّ ستؤول لى فى النهاية بعد زواج شقيقاتى، وسعدت برغبتها وتعجَّلنا الزواج وبعت الشقة الأخرى واشتريت بنصف ثمنها سيارة صغيرة مستعملة واشتريت لزوجتى بالباقى ذهبًا ومصوغات.

وبدأنا حياتنا الزوجية وأنجبنا طفلة وسرعان ما احتدمت المشاكل بين زوجتى وأمى وتحولت الحياة فى بيتنا إلى نار مشتعلة يتعذر احتمالها، وحرصًا على مصلحة طفلتى ورعايةً لكرامة أمى فقد بدأت البحث عن عمل فى الخارج لأستطيع شراء شقة مستقلة لنا. وسافرت للعمل بإحدى الدول العربية واصطحبت معى زوجتى وطفلتى.. وعشنا فى الغربة أجمل سنوات العمر أنجبت خلالها طفلاً آخر وكانت زوجتى طوالها نعم الزوجة المحبة الحريصة على مستقبلنا معا. وبعد سنوات أقنعتنى زوجتى بشراء شقة لنا فى مصر فاشتريت شقة فاخرة ووضعت فى ثمنها معظم مدخراتى خلال خمس سنوات من الغربة. وأصبحنا نعود إليها فى الأجازات.. وبعد ذلك أقنعتنى زوجتى بعدم الإسراف فى الإنفاق لكى نستطيع أن نؤثث شقتنا بالأثاث المناسب ونؤمِّن مستقبل الطفلين.. وقدرت لها حرصها على مصلحة الأسرة واستجبت لها وحرمت نفسى من كل متع الحياة لادخار المبالغ

المطلوبة لذلك.. وادخرنا بالفعل مبلغًا لا بأس به ثم وقعت كارثة شركات توظيف الأموال فأقنعتنى زوجتى بأنه من الحكمة أن تكون مدخراتنا فى يدنا باستمرار تحسبا للتقلبات وبأن الأفضل أن تكون دائمًا فى شكل مصوغات ذهبية تزداد قيمتها مع الأيام ونستطيع التصرف فيها حين نشاء.. واقتنعت برأيها.. بل ورأيت فيه عين الحكمة فأصبحت كل مدخراتى تتحول أولاً بأول إلى مصوغات ذهبية لزوجتى.. وواصلت العمل فترتين يوميًا بلا كلَلٍ لأُلبى طلبات الأبناء وأؤمن مستقبل الأسرة، وعادت زوجتى للإقامة فى مصر وإدخال الطفلين للمدرسة.. وأصبحت حياتى معسكر عمل متصلاً لا يخفف من جفافه سوى حضور زوجتى والطفلين إلى مقر عملى فى الأجازات.. ومضت سنوات على هذه الحال.. ثم لاحظت أن زوجتى قد بدأت ترفض السفر إلى مقر عملى فى الأجازات وتتهرب منه.. وأنها بدأت تكثر من الشكوى من متاعب رعاية الطفلين وحدها. فاقترحت عليها أن تلحق بى مع الطفلين وتُقيم معى إقامة دائمة لكنها رفضت ذلك بحجة مدرسة البنت.. وبعد فترة أخرى اقترحت زوجتى أن أضم الطفل إلى بيتى فى الغربة حتى تستطيع هى أن تتفرغ لطفلتنا التى ستدخل امتحان الشهادة الابتدائية بعد شهور، فاصطحبت الطفل معى فعلاً وألحقته بمدرسة خاصة مكلفة. وانتظرت على أحرٍّ من الجمر أداء ابنتى للامتحان لكى يجتمع شمل

الأسرة من جديد فى مقر عملى خلال الأجازة الصيفية فحصلت ابنتى على الشهادة.. ودعوت زوجتى للسفر إلىَّ فإذا بها ترفض ذلك رفضًا نهائيًا.. وتطالبنى بالطلاق!

وهرولت عائدًا إلى مصر لأنقذ أسرتى من التصدع. ففوجئت بزوجتى تواجهنى بوجه جامد جديد لم أعرفه من قبل وكأنها كانت ترتدى فوقه قناعًا خادعًا من الحب والبراءة طوال السنوات الماضية وتطلب منى الطلاق ببرود قاسٍ، وصُعقت حين عرفت من طفلتى أنها كانت تحدثها عن "شخص آخر" فى حياتها وتحاول إقناعها بأنه أحسن من "بابا" وسيوفر لها حياة أفضل وأجمل مما أوفرها لها! وصدمت صدمة قاسية وحاولت إثناءها عن هذا الجنون وهددتها بحرمانها من الطفلين واصطحابهما معى إلى مقر عملى عسى أن تفيق من غيِّها، فإذا بها تقابل هذا التهديد بلا أى اهتمام بل وتستحسن الفكرة أيضًا. وفشلت كل محاولاتى لإعادتها إلى رشْدها وفشلت أيضًا جهود أخواتها معها واقترح علىَّ أهلها أن أنفذ تهديدى فعلاً وأصطحب الطفلين معى عسى أن تحركها غريزة الأمومة وتعيدها إلى صوابها. وعدت بالطفلين إلى حيث أعمل وألحقتهما بمدرسة خاصة تكلفنى الكثير.. وقبعت فى بيتى أرعاهما وأحاول تعويضهما عن حرمانهما من رعاية الأم.. وانتظرت أن تفعل غريزة الأمومة التى

يقولـون إنها أقـوى غرائز المرأة مفعـولها فى قلـب زوجتى وأم طفلىَّ بلا جدوى! ومن حين لآخر يطلب منى الطفلان الاتصال بأمهما فأطلبها تليفونيا وأتحدث إليها محاولاً الإصلاح وأتحمل ردودها الجافة، وأعطى السماعة للطفلين فيتوسلان إليها أن تأتى إليهما لأنهما يحتاجان إليها.. فلا تستجيب لرجائهما وتوسلاتهما.. ومر عام كامل يا سيدى دون أن يرقَّ قلب هذه الأم لتوسلات طفليها وأصبحت حياتى كئيبة وموحشة.. واكتشفت كم كنت حسن النية فى علاقتى بها وبالجميع حيث إنى تربيت على حسن الظن بالناس، وتنبهت فى وحدتى إلى أنها ظلت ترفض بإصرار عدم الإنجاب بعد الطفل الثانى فأجهضت نفسها ثلاث مرات برغم اعتراضى على ذلك، واسترجعت اقتراحها علىَّ استثمار مدخراتى فى شراء محل تجارى فى مصر باسمينا.. وكيف استجبت ودفعت المطلوب مطمئنًا إلى ثقتى بها.. ثم فوجئت بها حين يئست من إعادتها إلى صوابها وطالبتها بإرجاع مالى تتحول فجأة إلى وحش ضار.. وترفض إعادة أى شىء إلىَّ بحجة أن كل شىء باسمها من الشقة إلى الأدوات الكهربائية إلى المحل إلى مدخراتى المجمدة فى مصوغاتها ومجوهراتها الذهبية.. ناهيك عما نالنى منها من إهانات بالغة أمام الطفلين حين بدأت تطالبنى بالطلاق حتى بلغت أن حاولت قتلى وجرحتنى فعلاً بسكين فى بطنى أمامهما؟ وما يؤلمنى

الآن أكثر من أى شىء آخر يا سيدى هو حالة الطفلين النفسية وأنهما قد تعلما الكراهية فى هذه السن المبكرة وما كنت أتمنى لهما أن يعرفاها وأصبحا لا يطيقان سماع اسم أمهما، خاصة بعد أن رفضا أيضًا أن يعودا للحياة معها فى مصر مادامت ترفض اللحاق بهما فى غربتى. والآن يقترب العام الدراسى من نهايته ولا أعرف ماذا سنفعل وأين نُقيم أنا والطفلان حين نعود إلى مصر حيث لم تعد لنا شقة، ولا أعرف كيف سأستطيع شراء شقة أخرى.. وهل سأستطيع الاستمرار فى عملى السنوات اللازمة لذلك أم لا؟.. وزوجتى قد أصمَّت أذنيها عن كل نداء، ومازالت تطلب الطلاق وقد بدأت تلجأ إلى المحاكم لكى تحصل عليه وتتزوج رجلاً آخر تعيش معه بأموالى التى جمعتها بشقاء السنين فى الغربة.. فكيف أستطيع أن أرى حصيلة شقاء عمرى تلهو به امرأة طائشة مع رجل آخر؟ لقد حاولت معها الكثير والكثير لكى نطوى الصفحة الماضية ونبدأ صفحة جديدة ومازلت على استعداد لأن أصفح من أجل طفلَىَّ لكنها ترفض كل نداء.. إننى أرجوك أن ترشدنى إلى الصواب بقلب وعقل أب لطفلين لا ذنب لهما فى أن يعيشا هذه المأساة ويخشى عليهما من أن تتفاعل آثارها داخلهما مع السنين فيفقدا القدرة على الحياة الطبيعية بعد أن اغتالت هذه المرأة البراءة والطفولة داخلهما!.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

فى بعض الأحيان يصبح "الصواب" المتاح لنا هو أن نسلِّم "بالخطأ" ونقبل به ونتحمل نتائجه بشجاعة مهما كانت مؤلمة. وفى حالتك يا سيدى فإن الصواب الوحيد المتاح لك الآن هو أن تتعامل مع نتائج أخطائك فى الإفراط فى الثقة العمياء بزوجتك ومع نتائج خطئها فى حقك ونقضها لعهودك وتضحيتها بطفليها اتباعا لهوى نفسها. فلقد أفرطت حقا فى الاعتماد على "حكمة" زوجتك وفى رؤية عين الصواب فى كل ما تقرره بشأن حياتكما طوال السنوات الماضية. وقد استوقفتنى فى رسالتك عبارة "وأقنعتنى" زوجتى بعمل كذا فوجدتها تتكرر فيها كل بضعة سطور.. ووجدتك "تقتنع" بسهولة بكل ما أرادته حتى ولو ترتبت عليه المشاكل والمعاناة. ولا شك أنك إنسان طيب القلب لكنى أتصور أن مبالغة والدتك فى حمايتك نفسيا فى طفولتك وصباك التى امتدت إلى إعانتك على اتخاذ قرار الزواج نفسه قد أورثتك بعض ملامح الشخصية الاعتمادية التى تعجز غالبًا عن اتخاذ قراراتها المصيرية بنفسها وتستريح إلى من يتخذها له نيابة عنه.. ولأن والدتك كانت حريصة حقًا على مصلحتك وكان عطاؤها لك مخلصًا فلقد ربطت وجدانيًا بين عطاء الأم لك، وبين عطاء الزوجة لك حين انتقلت إلى حمايتها النفسية بعد الزواج فتركتها تتخذ

لك كل القرارات "وتقنعك" بها دون أن يساورك أدنى شك فى دوافعها. لهذا تعرضت لمفاجأة صاعقة حين رأيت وجه زوجتك الجامد يطالبك فجأة بالطلاق ويرفض إعادة شىء مما استلبه منك. وأنت بلا شك ضحية لتقلُّب مشاعر زوجتك وانصراف قلبها عنك إلى غيرك، لكنك ضحية أيضًا وبقدر أكبر لإفراطك فى الثقة بحكمتها وأمانتها وصواب كل ما تراه من اختيارات إلى حد أن تسلم لها شقاء سنوات الغربة كله "لتحفظه" لك فى عنقها ورسغيها وعلبة مجوهراتها، كأنما لم تسمع من قبل عن البنوك والمصارف وأوعية الادخار الآمنة العديدة ناهيك عن تسجيل الشقة والمحل باسمها دون مبرر! لقد قال الحكيم الإغريقى أيسوب منذ قرون: "فكِّر قبل أن تثق" وأنت لم تفكر.. وإنما وثقت بغير تدبر ولا تفكير مع الأسف.

وربما شفع لك فى هذا قلة تجاربك فى الحياة واستنامتك القديمة إلى التخلص من معاناة اتخاذ القرارات وإلقائها على غيرك، فحتى العقل وحده ليس كافيا لأن يحمينا من الوقوع فى الأخطاء لكنه يجنبنا على الأقل الوقوع فى الشراك المفضوحة التى لا تخفى على صاحب بصيرة.. فى حين تعلمنا تجاربنا وتجارب الآخرين أن نتفادى تكرار الأخطاء.. ونتجنب مهالك السابقين ومصارعهم بقدر الإمكان.

وفى هذا قال الشاعر صادقًا:

ألم تـر أن العقـل زيـن لصاحبـه

لكن تمام العقل طول التجارب!

ولأن الحياة سلسلة متصلة من التجربة والخطأ.. فإن علينا دائمًا أن نتعلم متى نسلم بالهزيمة وأن نحتمل الخسائر ونقبل بها بلا غضاضة لأننا ندفع دائمًا ثمنًا غاليًا لكل أخطائنا، فإذا كان خطأ زوجتك التى تخلَّت عن طفليها بشعًا، فإنك تخطىء أكثر إذا تمسكت بالأمل فى استعادتها أو فى بدء صفحة جديدة معها والصفح عما جرى. فواقع الأمر أنها قد تخطت الخط الأحمر الذى لا أمل بعده فى إصلاح ولا صفح ولا عودة، وهى على أية حال لا ترغب فى هذه الصفحة الجديدة وإنما تصر على أن تطوى كل صفحاتها معك.. وليس هناك دليل على ذلك أقوى من تفريطها فى طفليها عامًا كاملاً دون أن يرق قلبها لتوسلاتهما.. ودون أن تقبل ـ وهو الأبشع ـ عودتهما للحياة معها فى مصر، لأن هذه العودة ترتبط لديك ولديها باستمرار العلاقة الزوجية بينكما وهى لا تريد استمرارًا.. فماذا يجدى الأمل فى مثل هذه الزوجة الكارهة التى تدهورت إلى حد محاولتها إيذاءك جسديا أمام طفليك؟ إن من لا يؤثر فيها نداء الأمومة.. لا يؤثر فيها أى نداء آخر ولست أومن باستجداء زوجة كارهة وغير مخلصة بنداءات الأطفال وتوسلاتهم إليها لكى ترجع إلى حياة تمقتها إلى حد محاولة قتل رمزها

ERROR: stackunderflow
OFFENDING COMMAND: ~

STACK: